وثائق الأدب العربي

١ — الصاحبي

وأحببت أن أبدأ به لانهُ — على صغر حجمه — جمع من أصول اللغة والادب ما لاغناء للاديب عن بحثه ، ولان صاحبهُ — وهو الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس أحد أعلام اللغة في القرن الرابع الهجري — خليق بان يكتب عنهُ ، وكيف وهو اول من ناقش جامدي عصره وثار على ما اتفقوا عليه ولم يشأ ان يظل الأديبُ حامد القريحة راكد الذهن ، يلتقط ما تناثر من فتات الادباء السابقين ويصوغ منهُ انرسالة ينسبها إلى نفسه . وكان له رأيهُ الذي سفه به حجج المتساهلين الى القديم وقوّض لهم ما رسخ من بنيان ، والخير برجالات اللغة في ازهر عصورها يرى ان للشيخ رأيهُ الحصيف ومكانتهُ السامية ومقامهُ المتاز ، ولكن في أي شيء ؟ أفي الجمع والتأليف فحسبُ ؟ أم هناك مذهب آخر انفرد به الرجل ولكن من غير ان يعرف به حتى لدى أخص تلاميذه ومريديه ؟ أو أن مذهبهُ ذاع وعرف ، ولكن ذهب بذهابه ؟ في الحقيقة أن الرجل لم يعرف في عصره الا كحافظ يجمع ويؤلف ، وإن عرف في عصرنا هذا برسالته التي عد بها متمرداً على القديم والقدماء ، ومتصراً للحديث والمحدثين ، مع اعترافه بتبريزهم على الجاهلين وغيرهم ، وبأنهُ من الخطل قصر النبوغ على زمن دون زمن ، أو على رجال دون رجال . وها هو ذا الصاحب بن عباد أحد تلاميذه ومعاصريه لم يترجمهُ إلاّ بقوله : (شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف) ، وهذه لعمري كلمة تقال حتى في دهماء المصنفين وعامتهم ولا تشير الى شيء مما نحن فيه ، ولعل الصاحب أراد ان يوفي استاذه حقه ولكن السجع حكم عليه فكان قاصراً في الحكم ، وكم للسجع من أحكام قاسية قضى بها حتى على القضاء نفسه ! غير أنا بعد طول البحث نجد أن لابن فارس آراء أخرى تخالف رأيهُ السابق وتشفُّ عن أنه الرجل المقلد الذي يرضخ لاحكام الزمن ويعمل على ارضاء معاصريه ، نجده صاحب مقامات حذا فيها حذو أبي بكر محمد بن الحسين المعروف بابن دريد ، والمقامة — وإن أطلقها الادباء بادىء ذي بدء على الحديث يقام في المجلس ويقال في المقامة ، على ان يشمل هذا الحديث الخطبة والعظة والقصة ، — إلا انهم في النهاية حادوا بها عن الجادة وجعلوها خادمة للغة فحسب ، واشترطوا في قبولها حسن الديباجة وكمال الصنعة وغرابة اللفظ ، كأنها وُضعتْ لتكون معجماً يجمع شوارد اللغة ويتضمن الامثال

السائرة والعبارات النادرة ، ولتكون ذخيرة لطلاب الغريب من ألفاظ وأساليب ، من غير نظر إلى ما فيها من معنى او خيال ! وكذلك نجده لا يعنى بالالفاظ المعربة ولا ينسبها الصحيحة إلى اللغة التي نقلت منها ، مع انهُ من الذين ضربوا بسهم وافر في بحث الكلمات واصولها ، ونجد العلماء — على مرأى منهُ ومسمع — ينسبون كلَّ كلمة معربة إلى اللغة الفارسية مع ان الواقع قد يخالفهم وينقض حججهم ويدل على أن ثقافة المشتغلين باللغة في هذا العصر كانت لاشيء . فلا اباحثون في اللغة عرفوا تاريخها ، أو على الاقل عرفوا أن للعرب القدماء اختلاطاً بالمصريين والحبشيين والفينيقيين والكلدان والهنود ، وان أمة الفرس هي آخر أمة عرفت عند العرب حتى تكون تلك المعرفة كمصباح يضيء لهم طريق البحث — ولاهم عرفوا من بقية العلوم ما يستعينون بهِ على صحة بحثهم ، فلفظ (كافور) مع انهُ هندي يقول العلماء إنهُ فارسي والفرس يقولون إنهُ عربي ، ولو بحثوا عن اصل الكافور لوجدوا وطنه الحقيقي بلاد الهند وعندهم (كابور) . وقد ثبت أن الاطياب والادوية كانت تحمل قديماً من الهند إلى بلاد العرب ، فأخذوا بعض اسمائها عنهم ، ومنهم أخذها الفرس . وزيادة على كل هذا نجده في القول على لغة العرب (اتوقيف هي ام اصطلاح) وفي القول (على الخط العربي وأول من كتب بهِ) محافظاً شديد المحافظة ، مع أننا لا نكاد ننتهي من قراءة رسالته إلى ابن سعيد — الكاتب وقد ناقشهُ في إنكاره على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه في الحماسة وأبان فيها مذهبه الاول مع الإغراق في الحرية — حتى نعجب كل العجب من هذا التناقض الغريب ، وجدير بنا والحالة هذه أن نعجب وان نسأل : لم هذا التناقض ولم لم يصلب أو يعذب على هذا الاغراق ؟ او على الاقل لم لم نجد من يناقش الرسالة او ينقدها كما ناقش هو رسالة العجلي ؟ خصوصاً في هذا الوقت الذي راجت فيهِ سوق الصنعة واتكل كل اديب على قديم يحذو حذوه ويكون له حجة يدفع بها خصمه ، ولم لم يكن لها اثرها في الامصار العربية عامة كالحصل لكتاب (في الشعر الجاهلي) مثلاً في مصر والشرق ؟! لعل كل هذا أو بعضه وقع ولكنهُ ذهب بين سمع الارض وبصرها ، او لعله لم يحصل لان إخلاص الادباء لآدابهم حتم عليهم تشجيع هذه الآراء الحرة الجديدة . كل هذا يحتاج إلى دليل ويدل على أن هناك سراً خفيًّا قد يكشفه البحث بعد . ومن الغريب اننا نجد الثعالبي يتكلم على الرسالة فيصفها بأنها في نهاية الملاحة وقد تضمنت أنموذجاً من ملح شعراء الجيل وغيرهم من المعاصرين وفيها ظرف اخبارهم ، كأن الرجل لم يفهمها ولم يدر ما بين دفتيها من هدم وثورة ، بل كأنهُ لم يقرأ : فاذا الانكار وله هذا الاعتراض ، ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ وله تأخذ بقول من قال « ما ترك الاول

للآخر شيئاً» ؟ وهل الدنيا الا أزمان ، ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الافهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟ وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟ أو ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد (أبي تمام) مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً ، وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ؟ وهل (حبيب) إلا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ ولما جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم وأهل النحو في مصنفاتهم والنظار في موضوعاتهم وأرباب الصناعة في جميع صناعاتهم ولم يجز معارضة أبي تمام ؟ — إلى أن قال : ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة ، ولكلت ألسن لسنة، ولما توشى احد الخطابة، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة، ولمجت القلوب كل مردد مكرر ، ولفظت القلوب كل مرجع ممضغ، إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وحقيقٌ بنا بعد هذا ألاّ نأبه لرأي الثعالبي وألاّ نعدّهُ من الذين عرفوها ، لانهُ لم يزد على ان كتب عبارات صلتها بالرسالة تكاد تكون منقطعة ! وما اشبهه في هذا ببعض مقرظي الكتب اليوم فان الواحد منهم يقرظ الكتاب الديني مثلاً بقصيدة غزلية او مقامة حريرية ، من غير نظر إلى موضوعه ومسائله ! وشبيه برأي الثعالبي رأي مؤرخي الادب عندنا في أبي نواس وفي انهُ مجدد في الشعر العربي بل وفي أنهُ أول من جدد وأطلق نفسهُ من ربقة التقليد ، كما يقولون : يستدلون على ذلك بانتقاده الطريقة القديمة التي هي وصف البيد والاطلال ، وافتتاح القصيد بالغزل وخطاب الربوع ؛ إلى غير ذلك من الاشياء التي كان لا يحيد عنها شعراء العرب ، وفاتهم أن أبا نواس رجل فارسي انتحل العربية وعمل على مقاومتها وانتصر للشعوبية تحت ستار هذا النوع من الدعاية الذي زعمهُ تجديداً ، حتى أن الخليفة لما رآه يسترسل في ذلك نهاه عنهُ وكلفهُ النظم على طريقة الجاهلية ، وكأنهُ نهاه عن نصرة الشعوبية ، ويظهر ذلك من أبيات قالها ، وهي :

أعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني الى نعت الطلول مسلطٌ ... تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعاً امير المؤمنين وطاعةً ... وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا

.... وكذلك فاتهم أن أبا نواس لم يكن اول من حمل هذا اللواء ، بل هي الشعوبية

تنفست الصعداء من يوم أن دالت دولة بني أمية : تلك الدولة التي طردت الفرس من حظيرتها — وخصوصاً الشعراء ، لأن الشعر في ذلك العصر يعد بمثابة صحافة اليوم ، فليس ببدع من بني أمية هذا الطرد ، وهي الدولة الخبيرة بشؤون سياستها وساستهم . فلما تنفست الشعوبية الصعداء ، وجدّ الفرس في ثلّ عروش الدولة عظيمها وحقيرها — كما فعل الاسبان مع العرب في الاندلس — وناصروا العلويين ليسهل عليهم تنفيذ خططهم ورد بضاعتهم — وكان من نتائج هذا الجد نكبة البرامكة وقتل الفضل بن سهل واتخاذ الاتراك عوناً للخلفاء عليهم ، ولا أدري ما الذي قعد بهم عن إدراك كل أمنيتهم مع أنهم لبسوا لكل حال لبوسها وأعدوا لكل أمر عدته ، فمرة ذموا البيد ونقموا على العرب وصف طي وسلم كما في شعر مطيع بن إياس ، ومرة أخرى أخذوا على شعراء العرب بكاء الاطلال والربوع ، وأساءوا الى بعض القبائل العربية المعروفة ، كما قال أبو نواس :

يبكي على طلل الماضين من أسد لله درك قل لي من بنو أسد ؟

لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد !

إلى غير ذلك من الاساليب السياسية التي كانوا يقصدون بها الحط من شأن العرب في أعز شيء لديهم وهو أدبهم . وإني وان أخذتُ على الادباء تهاونهم في تفهم ما ذكرت ، فاني سآخذ عليهم تهاوناً آخر وقعوا فيه وكان الجدير بهم إدراكه : ذلك التهاون هو اعتبارهم أن الشعر بانتقاله من وصف الحياة البدوية إلى وصف القصور ورغد الحياة صار شعراً جديداً وخالياً من شوائب التقليد ، مع أن هذا الانتقال هو التقليد بعينه ، وكأنهم خرجوا من تقليد الى تقليد : من تقليد العرب الى تقليد الفرس . واعترافهم بالتجديد فيه برهان منهم على انهُ شعرٌ قوامهُ اللفظ والاسلوب فحسب ، وهم بهذا يطعنونهُ الطعنة النجلاء من حيث لا يشعرون . لماذا ؟ لان الشعر من حيث هو شعر فن خالدٌ بروحه ومعناه لا بلفظه وأساليبه التي هي اعراض لجوهر لا يتغير ، فنٌ له أثره في كل شيء من مظاهر الحياة قديمها وحديثها ، حتى انك لتجد الشاعر يصف الناقة كما يصف السيارة ، وقد يكون في الاولى أشعر منهُ في الثانية . ولماذا نرى في معرض (جماعة الخيال) صورة البدوية إلى جانب صورة الخائم والمدام ، مع انهُ قد يكون لصورة البدوية الراعية من الجلال والروعة والمعاني الشعرية ما لا نراه في صورة مدام (س) مثلاً — والشعر والرسمُ صنوان وإن شئت فقل من اصل واحد — ذلك لان قدسية الفنّ الشعري تسمو عن ان يكون للزخرف والطلاء قيمة يحكم عليه بها ، وتسمو عن أن يحدهُ زمن أو وطن في جانب ما كمن فيه من حياة هي سر الحياة ، وجمال لا تحسهُ إلا الروح ...

عبد القادر عاشور